

جامعة القادسية
كلية التربية
قسم التاريخ

بحث بعنوان

التوجهات الإصلاحية عند المفكر علي مبارك

الطالبة

رنا جبوري موسى العيسوي

الأستاذ المساعد الدكتور

عبد الكريم حسين الشباني

المقدمة :

ظهر خلال القرن التاسع عشر مجموعة من المفكرين العرب الذي قُدر لبعضهم الدراسة في أوروبا والاطلاع المباشر على الواقع العلمي والحضاري للتطور والتقدم الحاصل لتلك الدول فكان لذلك تأثير كبير على توجهاتهم الفكرية ، ولأن كثرت الدراسات التي عالجت الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري للحواضر العربية خلال القرن التاسع عشر ، إلا أن بعض الدراسات افترقت إلى تناول رواد حركة النهضة العربية في تلك الحقبة ، ويقف في مقدمة هؤلاء الرواد المفكر العربي (علي مبارك) .

ونظرا لاهمية دراسة الفكر الذي يعطي تحليل علمي للواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي خلال الحقبة التي عاشها هذا المفكر ، ولاسيما اذا اخذنا بنظر الاعتبار أن الفكر هو مجمل التحليلات للواقع المعاش ، ومن هنا تأتي اهمية دراسة المفكر العربي علي مبارك .

وتألف البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة ، وتتاول البحث موقف علي مبارك من الاصلاح ، وما هو مفهوم الاصلاح عنده ، وكان المبحث الأول بعنوان (مفهوم الاصلاح عند علي مبارك) ، واما المبحث الثاني فقد تتاول وسائل وادوات الاصلاح عند علي مبارك التي تتمثل في الترجمة والصحافة والتاريخ .

واعتمدت الباحثة على مجموعة من المصادر تأتي في مقدمتها المصادر الأصلية التي تعد من مؤلفاته ، وهي كالاتي : كتاب (الخطط التوقيفية) ، ويتكون من عشرين جزءاً ، وكتاب (علم الدين) ، ويتكون من أربعة اجزاء ، وكتاب (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر) ، إذ تمثل مؤلفاته جوهر توجهاته الفكرية ، وكذلك مؤلفات المفكر العربي (محمد عمارة) صاحب الجهد الكبير في مؤلفه (الاعمال الكاملة لعلي مبارك) ، وكذلك كتاب (تقويم النيل) تأليف (امين سامي باشا) الذي يتكون من عدة اجزاء .

واعتمدت الدراسة على الوثائق الرسمية الخاصة بعلي مبارك في محفوظات عابدين ، وكذلك اعتمدت على مجموعة من الكتب المعربة التي افادت الدراسة كثيرا ، ومنها كتاب (لمحة عامة عن مصر) لمؤلفه (كلوت بك) الذي يتكون من جزئين ، وكتاب (تاريخ الاقطار العربية الحديثة) لمؤلفه (لوتسكي) ، وكتاب (الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر) لمؤلفه (هيلين آن ريفلين) .

وكانت الصحافة مصدرا هاما ولاسيما الصحف التي صدرت في عهد (علي مبارك) ، إذ وضحت فكره وتوجهاته الاصلاحية ومهمته بالنهوض بالواقع التعليمي والصحي والهندسي للبلد في تلك الحقبة .

وقد واجهت الباحثة صعوبات كثيرة تكمن في اختيار الموضوع ، ولاسيما أن عملية دراسة موضوع ما بالفكر ليست بالامر السهل ، فضلا إلى صعوبة السفر إلى جمهورية مصر العربية ، إذ أن

حواجز وقيود السفر على العراقيين كثيرة وتكاليفه باهظة ولاسيما مع عدم توفر الامكانيات المادية المطلوبة ، فضلا إلى الظروف التي كانت ولا زالت تعيشها مصر بسبب تغيير نظام الحكم والاضطرابات الامنية التي رافقت هذا التغيير .

الباحثة

المبحث الأول : مفهوم الإصلاح :

الإصلاح (Reform) لغةً : الصلاح ، ضد الفساد ، صَلَحَ يَصْلَحُ وَيَصْلَحُ صَلَاحًا وَصُلُوحًا ، والإصلاح نقيض الفساد ^(١) ، اما معنى الإصلاح اصطلاحاً فهو : صلح : الصاد واللام والحاء اصل واحد يدل على خلاف الفساد ، يقال صَلَحَ الشيء يصلح صلاحاً ، ويقال صَلَحَ بفتح اللام ^(٢) .

وقد ورد الإصلاح في القرآن الكريم في اكثر من سورة كقوله تعالى : ((وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)) ^(٣) ، وكذلك في قوله تعالى : ((إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)) ^(٤) ، ويتحدد مفهوم الإصلاح في تعاريف عدة وحسب تجارب الشعوب المختلفة ، وقد تطور مفهومه بتطور الزمن ، فمفهومه في اوربا يمر بمراحل تطويرية خلال القرن التاسع عشر ، تمثلت بالتحويلات الكبرى التي شهدتها اوربا والتي امتدت من عصر النهضة الاوربية العصر الذي شهد حالة من التجدد وبعث الحضارة الاغريقية وإحيائها من جديد بعد حقب مظلمة مثلتها القرون الوسطى ^(٥) .

وقد اتسم هذا العصر بجملة من التغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، امتدت من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، وقد تمثلت في حركات (الإصلاح الديني) ^(٦) ، و (الاستكشافات الجغرافية) ، و (النهضة الادبية والفنية) ، و (الاتجاهات الاصلاحية في الفكر السياسي) .

وكان عصر التنوير مرحلة أخرى للتحديث في اوربا تمثلت بالتطور الذي وصلت له الثورة الصناعية ، وما آلت إليه من سيطرة الطبقة البرجوازية على الانتاج ، ونمو الرأسمالية ، وكذلك تمثلت في الثورة الفرنسية ومفكرها ، وقاد عصر التنوير إلى اهداف تركزت على اهمية دور العقل الانساني وقوته الذاتية ^(٧) .

واما بالنسبة للدولة العثمانية فقد بدأت مطلع القرن الثامن عشر مظاهر الانحطاط تسري في مختلف اركان الدولة العثمانية ، مما قاد رجال الفكر والسياسة إلى البحث عن السبل الكفيلة للنهوض بالدولة ، وايقاف حالة التدهور واعادة قوتها ، فوجدوا في الإصلاح خير وسيلة لعلاج ذلك ، وقد ظهر تياران من المصلحين ، الأول يؤكد على أن العلاج يكمن في تطبيق الانظمة الإسلامية والتقاليد العثمانية الاصلية ، والثاني يؤكد على أن الإصلاح يستلزم تبني الانظمة الاوربية المعاصرة ^(٨) .

ونتيجة للنهضة التي تعيشها اوربا والتطور الحاصل فيها في مختلف جوانب الحياة فقد ترجحت كفة التيار الثاني ، وقد قادهم هذا إلى عملية اصلاح للدولة العثمانية الذي اعتمد في بدايته على الاقتباس من اوربا ، واحتل الجانب العسكري مكانة الصدارة ثم الاهتمام بالجوانب الادارية والمالية والقضائية ، وكانت معظم الافكار الاصلاحية مستوحاة من انماط فرنسية متمثلة بافكار الثورة الفرنسية ^(٩) .

مفهوم الإصلاح عند علي مبارك :

تأثر علي مبارك بحركة الإصلاح والنهضة التي تعيشها أوروبا التي عاشها من خلال دراسته في باريس ، فادرك أن تطور أوروبا جاء نتيجة لاهتمامهم بالعلم الذي دخل كل ميادين الحياة ، فكان من الطبيعي أن يدعو إلى نقل تلك التجربة إلى بلده مصر ، لكن تلك الفكرة لم تكن ضمن مفهوم نقل كل شيء من الغرب ، بل يجب أن تراعى ظروف مصر كبلد عربي مسلم (١٠) .

وقد ركز علي مبارك على عدة نقاط لنقل الإصلاح إلى بلده مصر أهمها :

١. الدعوة إلى نقل العلم الأوربي إلى مصر :

ففي دعوة علي مبارك للإصلاح التي كرس حياته لتتلقاها مصر منه وتتقبلها وتعمل بها ، بل تسير على نهجها في سياسة ثابتة دائمة ، ونجد أرائه التي امن بها وسجلها في مؤلفاته ، وظل يرددتها في صور شتى وفي مناسبات مختلفة ، ودعا قومه إلى أن يؤمنوا بها لاعتقاده أن استقامة حياتهم ، واستعادة مجدهم ، ودخولهم في مداخل الدول القوية ذات السيادة والمنعة في عصرنا الحاضر ، رهين بالاستجابة لهذه الدعوة ، والايمان بهذه الآراء ، والعمل على اساس هذه الاستجابة وهذا الايمان (١١) .

وكانت اعماله كلها مطابقة لما اعتقد من آراء وما دعا من دعوة ، فقد كان معجبا اشد الاعجاب بالحياة العلمية الاوربية ، وما تحقق لاهل أوروبا عن طريق العلم والمعرفة من الخير والتقدم ، وقد تكون دعوته ويكون أسلوبه اقوى وأبين في تلخيص هذه الدعوة في كتابة (علم الدين) في دعوته لاهل الشرق لان يتخذوا العلم الاوربي سبيلا للتقدم والقوة والسعادة والغنى (١٢) .

وذكر مبارك أن الاوربيين جمعوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة فوق سطح الأرض وفي وسط البحار المتسعة ، فوصلوا بسعيهم واجتهادهم إلى اعلى درجة في التمدن ، حتى صاروا في عصرنا هذا منفردين باكثر الصنائع متمتعين بين جميع الملل بالرفاهية والحرية التامة ، رأبهم أمر نافذ ، وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ (١٣) .

ودعا علي مبارك أهل الشرق لتعلم اللغات الاوربية ومع انه قد تعلم في فرنسا واجاد اللغة الفرنسية إلا انه دعا أيضا إلى تعلم اللغة الانجليزية ، وليس في ذلك شيئا من التناقض اذا نظرنا إلى أن الانجليزية هي لغة العلم والصناعة ، وانه يدعو إليها دعوة قوية ملحة ، كما يدعو إلى المعرفة والبحث عن الاسباب التي تقدمت بها أوروبا ، لذلك فهو كبير العناية بعلوم الرياضة من الحساب ، والجبر ، والهندسة ، والكيمياء ، والطب ، والفلك ، والمخترعات الحديثة والنظريات والمبادئ التي قامت عليها هذه المخترعات .

ودعا علي مبارك إلى الصناعة والعناية بها ، كما رغب ترغيبا شديدا في الجندية وصناعة الحرب ، وازالة ما في نفوس المصريين وما استقر فيها يومذاك من أن الرياسة والصدارة والامارة وقيادة الجند وقف على غير المصريين ، ولا يجب أن يعتقدوا في انفسهم انهم كفؤ لها (١٤) .

ويطمح علي مبارك من خلال هذه الدعوات للعلم والحضارة الاوربية إلى أن يسلك المصريين إلى ذلك سبيلا هينا ، سهلا ، وسطا ، لا طفرة فيه ولا تسرع ، ولا وهن ، فهو يعتمد هنا على الزمن والصبر والمثابرة في تحول هذا الوطن عن آراء الشرف وعاداته ومخلفاته إلى علم الغرب ومبادئه في الحياة والفهم والسلوك (١٥) .

٢. الدولة :

كان علي مبارك واحدا من المفكرين المثقفين المصريين الذين اسهموا في بناء تجربة مصر الحديثة من خلال جهاز الدولة المدني الجديد الذي عرفته البلاد منذ حكم محمد علي سنة ١٨٠٥م (١٦) ، وهناك حقيقة تقول أن جهاز الدولة هذا هو اداة الاصلاح والتقدم والتطور الوحيدة في البلاد حتى سبعينات القرن التاسع عشر ، ولم يكن هناك لمصلح خارج هذا الجهاز يستطيع أن يمارس منه أي دعوة من دعوات الاستتارة والاصلاح من خارج جهازها ، وانما لان الملابس التي صاحبت البلاد إلى عصر اليقظة والتنوير قد فرضت أن يكون سيرها هذا عبر انجازات جهاز الدولة ، وقد جعلت من جهاز الدولة الاداة الاولى والفعالة والوحيدة في تحقيق اهدافها في هذا الميدان (١٧) .

وقد عبر عن ذلك الشيخ حسن العطار (١٧٦٦ - ١٨٣٥ م) عن طموح القوى الاجتماعية الجديدة إلى علم جديد بقوله : " أن بلادنا لا بد أن تتغير ، وان تتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ... " (١٨) ، وهنا جاءت عبقرية محمد علي ففتحت عبقرية مصر الكامنة كوامنها ، وغدت عبقرية الجندي القادم قوة كبرى تجسدت فيها قوة مصر ، التاريخ والبشر والحضارة والامكانيات ، فبدأ السير لتحقيق الطموح الذي عبر عنه الشيخ (حسن العطار) إذ لم يدع اعداء مصر وكانوا كثيرين امامها طريقا آخر غير طريق اتخاذ الدولة وجهازها اداة وحيدة لتحقيق امالها فخلقوا لها بذلك ملابس خاصة فرضت عليها طريقا خاصا ومتميزا لبلوغ تحررها وانعتاقها من مجتمع العصور الوسطى والدخول إلى عصر التنوير الحديث (١٩) .

وكانت الدولة العثمانية تريد مصر مجرد ولاية تابعة ، كي تستفيد من خيراتها وتحصل على الجزية ، ولاسيما أن خضوعها يضمن خضوع ولايات المشرق العربي لاستبداد الاتراك ، واما بالنسبة إلى اوربا الثورة الصناعية والاحتكارات النامية تتطلع إلى بناء امبراطوريات في الشرق ، لكي تحقق احلام الاقطاع الصليبيين القديمة لحساب البرجوازية الصاعدة الطموحة .

واما المماليك ، والمليتمون ، ونظار الاوقاف ، ورجال الطرق الصوفية ، وقطاع كبير من شيوخ الازهر ، فقد اصبحوا بقايا نظام قديم ومخلفات مجتمع بائد وهم اشبه بالثغرات في جسم مصر وعقلها ، يتيحون لفرص لاختراق الغزاة لها (٢٠) .

وقد فرضت الملابس الخاصة والقاهرة على مصر أن تقيم دولة ، فتنشئ هذه الدولة جيشا كي يكون الاداة الفعالة في اقامة الصناعة والتجارة الوطنية ، وبناء المدارس ، وانشاء المطابع ، ونشر

الصحف ، وإقامة أجهزة للترجمة والتأليف والنشر ، وإرسال البعثات العلمية وتكوين جيل من المثقفين والفنيين والاداريين والساسة والعلماء ، وتنظيم الري والصرف واصلاح الارض وتنمية المحاصيل وتحديثها (٢١) .

وكان جهاز الدولة جهاز الاصلاح الوحيد القوي والفعال ، فكان جديرا باستحقاق واهلية أن يمنحه المصلحون ودعاة التقدم كل الاهتمام ، فقد عرفت مصر من خلاله الصحافة ، وارتادت هذا الميدان قبل غيرها من دول الشرق ، وإقامة من خلاله المدارس المدنية ذات التعليم المجاني التي تتفق على طلابها في المأكل والملبس والسكن ، ثم تعطيهم المصروف .

وكذلك انشأت بواسطة مطبعة وحيدة هي المطبعة الاميرية في بولاق ، فاخرجت إلى المكتبة العربية عيون الفكر الاوربي الحديث في طباعة دونها الكثير من الطباعة الحالية ، وفي مجلدات تدهش زخرفتها واحجامها والوان احبارها الكثير في الربع الاخير من القرن العشرين ، فوضعت هذه المطبعة في متناول العقل العربي اكثر العلوم والفنون تقدما في اكثر الحضارات تقدما الحضارة الاوربية ، كما بعثت إلى المكتبة العربية كنوزا من تراث حضارتنا القومي والاسلامي ، كما اتاحت الفرص الكثيرة للتأليف والاضافة من قبل الجيل الناشئ من المثقفين ، وفي اقل من اربعين عاما اخرجت هذه المطبعة وحدها اكثر من الف كتاب ، كثير منها ضخمة وفي عدة مجلدات ، في حين لم تخرج المطابع العثمانية خلال اكثر من قرن (١٧٢٨ - ١٨٣٠ م) سوى اربعين كتابا اغلبها في الشعوذة والخرافات (٢٢) .

وكان لجهاز الدولة فضلا عن الايجابيات المذكورة انفا الكثير من السلبيات والعيوب ، وكانت له مظالم وتجاوزات من الممكن أن تكتب فيها الفصول وتسود بها الصفحات ، وكان من اهم عيوب الدولة يومذاك ، بل كان عيبها الأول والقاتل انها كانت حكومة فردية ، على النمط الذي ابتلى به الشرق في كثير من عصور تاريخه الطويل ، إذ كان الطابع الفردي طاغيا في اتخاذ القرار وتنفيذه ، وفي اختيار البدائل والمفاضلة بينها ، الأمر الذي جعل للاصلاحات احيانا مذاقا مرا في أفواه المستفيدين (٢٣) .

وكان الكثير من الرجال الكبار من مفكري المجتمع ومثقفيه الذي أسهموا في بناء عصر التنوير من خلال جهاز الدولة ، قد ادركوا هذا العيب ، وابعصروا مخاطره التي تهدد كل البناء بالانهيار عندما تحرق به التحديات ، وقد كان الحكم الفردي يحرم التجربة من حب كثير من ابناء الشعب وولائهم لها ، ويحجب عنها حماية المستفيدين الحقيقيين من قيامها (٢٤) .

ومن هنا كان تنبيه هؤلاء الرجال إلى تلك السلبية وذلك العيب وهذه المخاطر على تفاوت في شجاعتهم وصراحتهم والاسلوب المباشر أو الحقيقي الذي استخدموه في النقد والتنبيه ، ومن هنا كان تفاوت المحن والازمات التي مرت بعلاقة هؤلاء الرجال مع جهاز الدولة والخديوي بالذات ، وهنا كان نصيب علي مبارك من هذه الشجاعة قد فاق نصيب الكثيرين من اقرانه ولاسيما أن اسلوبه في النقد قد تجاوز التلميح إلى التصريح ، كما كان حظه وافرا كذلك من الازمات مع جهاز الدولة ، سواء على عهد الخديوي سعيد أو حتى مع الخديوي اسماعيل (٢٥) .

وكانت نظرة علي مبارك إلى جهاز الدولة نظرة علمية واقعية ، فالدولة في احدث التعريفات هي جهاز قهر تمتلكه طبقة اجتماعية أو مجموعة طبقات ، لتسخره في تنمية مصالحها وتحقيق اهدافها ، وقهر المناوئين لهذه المصالح والاهداف ، وما السلطات المتعددة والاجهزة التنفيذية والتشريعية والقضائية المختلفة إلا ادوات تطبيق وتحقيق لهذا الهدف ولتلك الفلسفة التي تمثل فكر الحاكمين (٢٦) .

وتفاوتت اجهزة الدولة في وسائل التطبيق وطرائق تحقيق اهداف الطبقات الحاكمة ، فهناك اساليب خشنة غير متحضرة تتميز بضيق افق اصحابها وانحيازهم للتعسف والجور طرقا لتحقيق ما يريدون ، وهناك اساليب متحضرة تسمح بمقادير متفاوتة من العدل بالنسبة للآخرين ، ويزيد وضوح التفاوت بين هذه الاساليب تفاوت اهداف الحكام بتفاوت المواقع الاجتماعية ، والاهداف الاقتصادية للطبقة التي يمثلها هذا الجهاز ، فقد تكون طبقة اقلية مستغلة وشرهة في الاستغلال ، وقد تكون مصالحها هي مصالح الجماهير العريضة ، فيكون العدل عندها عدلا لاغلبية الناس (٢٧) .

ويعد جهاز الدولة جهاز قهر ولا يلفظ من خشونة هذا القهر ويخفف من ثقله على المحكومين إلا ما يخالطه من عدل يستهدف هذا الجهاز تحقيقه ، الأمر الذي يفرض على الوسائل انواعا من التحضر والانسانية في التنفيذ ، وقد كان هذا هو تشخيص علي مبارك لطبيعة سلطة الدولة ، إذ يقول : " أن تفاوت الناس في العقل ، وجودة النظر في صلاح الامة ، والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان ، اوجب استيلاء بعض الناس على بعض ، وسريان القهر بينهم ، حتى نشأ من ذلك التمييز باسم الحاكم والمحكوم ، والمالك والمملوك ، وغاية الأمر أن القهر اذا داخله العدل كان قهرا لذيذا ، وضعف الشعور به ، ولم تكن النفس شديدة الالباء له ، لخفاء الذل فيه ، ولم تكن لشرعية من الشرائع أن تبطل ذلك الأمر وتبعث على اهماله ، لما في تركه من الفساد العظيم " (٢٨) .

ويتقدم علي مبارك على درب نقد الدولة خطوة أخرى ، فينتقد بطريق يكاد يكون مباشر السلطة المطلقة للحاكم ، والسلطان غير المقيد بالقانون والدستور والشورى ، وذلك عند حديثه عن انواع الحكومات فيقسمها إلى جمهورية وملكية ، ثم يقسم الملكية إلى : ملكية مقيدة ، وملكية مطلقة ، فيزكي المقيدة ويعيب على المطلقة أن الهوى والغرض الذاتي هو الحاكم على المحاكم فيها .

ويقول علي مبارك : " أن الحكومة تنقسم إلى صورتين (٢٩) : الاولى : الحكومة الجمهورية : وهي أن يكون الحكم مفوضا لمجلس مركب من اعضاء تنتخبهم الرعية ، لادارة امور المملكة تحت قوانين يلزمهم العمل بها وعدم الخروج عنها ، والثانية : السلطنة والحكومة الملكية : وهو أن يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو الملك ، وهذه أيضا تنقسم إلى قسمين : مقيدة ومطلقة ، لانها اما أن يكون الملك مقيدا بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها إلى هوى نفسه ، وهي الحكومة الملكية المقيدة ، واما أن يكون غير مقيد بشيء من ذلك يحكم برأيه ، ويتصرف بهوى نفسه ، فيكون رايه شريعة المملكة ، وحكمه قانونها ، وهي الحكومة الملكية المطلقة " (٣٠) .

وكتب علي مبارك هذا الكلام في عهد الخديوي سعيد في مصر ، ونشره في مصر في عهد الخديوي توفيق ، وفي عهد الخديوي اسماعيل كتب في كتابه (نخبة الفكر في تدبير نيل مصر) وهو الكتاب الذي سبب له ازمة مع جهاز الدولة والخديوي فقد فيها كل مناصبه لمدة من الزمن ، فكتب عن الاصول الضرورية لتحقيق السعادة في المجتمع ، فلخصها في اصلين رئيسين هما : العمل ، والعدل المترتب على تقييد السلطة الحاكمة بالقانون ، فبالعمل تتحقق الثروة ، وبالعدل تصل الثروة إلى العاملين فيتحقق الهدف السامي من وجودها (٣١) .

وضم الكتاب (نخبة الفكر) الكثير من الانتقادات لسلطة الدولة بعد عهد محمد علي قد احدث له ازمة حادة مع الدولة افقدته كل مناصبه الوزارية ، فقد كان الحزب الذي يكيد لعلي مبارك عند الخديوي بزعامة اسماعيل صديق المفتش كان في نظر علي مبارك حزب الجهلاء ، فهو مصري مثلهم ، بل اشد سمرة منهم ، ولكنه يمتاز عنهم بأنه عالم ومتقف ومفكر (٣٢) .

ويرى علي مبارك أن تقييد السلطة بالقانون وتقليد المناصب الحاكمة للعلماء والخبراء سيفتح باب الحرية في المجتمع واسعا امام المواطنين ، وهو الأمر الذي حبذه علي مبارك ، فقد حدثنا عن ما تتمتع به باريس فيقول : " فلقد كانت باريز على غاية في التقدم وكثر به المؤلفون ، ورحل اليها كثير من أهل اوربا ، وخفف فيها شأن العقوبات ، فكان كل انسان يتكلم بحرية ويكتب ما يشاء من احوال الخلق ، سواء كانت خصوصية او عمومية ، سياسية أو دينية ، وظهر فيها رجال ذوو افكار ، فالفوا كتباً انتشرت في سائر الاقطار فانجلت عنهم غياهب الجهل وتميزوا على غيرهم بالعقل " (٣٣) .

ويتضح مما قد سبق الفكر النظري والعام عند علي مبارك في الدولة والسلطة والسلطان ، وضد السلطة المطلقة والفردية ، وهو فكر نظري صاغة في ظل تجربة سياسية تميزت الدولة فيها بالجنوح الشديد إلى حكم الفرد ، ومن ثم فلا بد وان يحسب لعلي مبارك اسهاما جريئا في نقد سلطة الفرد المطلقة ، ودعوة إلى تقييد سلطان الحاكم وسلطته بالقانون (٣٤) ، وتأسيسا على ما تقدم أن مفهوم علي مبارك للدولة ودورها انطلق من المفهوم الاوربي لها كما عاشه في فرنسا في الدعوة إلى محاربة الحكم المطلق والفردية وتقييدها بالدستور والقانون ، لان الدستور هو الحامي الشرعي لاستمرار الدولة واستقرارها ومن ثم تحقيق هدفها ، وقد سجل علي مبارك نقده الشديد للسلطة الحاكمة في ولايات الشرق ويقصد بها التابعة للحكم العثماني .

٣. التعليم :

سبق علي مبارك متتوري المرحلة آنذاك ، فهو يعد واحدا من كوكبة المفكرين والمتقنين المصريين الذين اسهموا في بناء تجربة مصر الحديثة من خلال جهاز الدولة المدني الذي كان اداة التنوير والاستتارة والتقدم والتطوير الوحيدة في البلاد المصرية^(٣٥) ، ويرى علي مبارك أن اصلاح التعليم هو خير انواع الاصلاح ، بل هو خير من الاصلاح السياسي ، كما اكد على أن الاصلاح السياسي ما لم يرتكز على الاصلاح التعليمي فلا بقاء له ولا قيمة لذلك^(٣٦) .

وكانت رغبة علي مبارك في اصلاح التعليم مستندة إلى دعامين ، الاولى : إحساسه بان التعليم يجب أن يكون من متطلبات البيئة ويساير حاجتها ، والثانية : إحساسه بان التعليم يجب أن يكون شعبيا - أي غير خاضع لسلطات الحكومة - فعد التعليم كالماء والزراد فقال في ذلك : " فالخلق مفتقرة إلى العلم في سائر البلاد كافتقار الظمان إلى الماء " ^(٣٧) ، كما نبه إلى اهمية الكتاب والمطالعة ، فكان يرى في المطالعة انها : " تزيد البركة في العمر ، وان قلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر " ، وكان علي مبارك من الداعين إلى اهمية الكتاب والمطالعة ، وعمد علي مبارك إلى انشاء دار الكتب عام ١٨٧٠م التي وصف مشروع انشائها قائلا : " من انفع التجديدات التي حدثت في عهد الخديوي اسماعيل ، وحصل به النفع العام للخاص والعام " ^(٣٨) .

ويعد علي مبارك رجل التعليم في مصر ، إذ أن نظارة المعارف عرفت اوج ازدهارها في عهد الخديوي اسماعيل سنة ١٨٦٨م ، وان علي مبارك تولى منصب نظارة المعارف في ١٥ ابريل سنة ١٨٦٨م ، إذ تولى نظارتها اربع مرات إلى سنة (١٣ مايو سنة ١٨٩١م) ، وكان آخر عهده بها ، ففي المدة التي سبقت تولي علي مبارك نظارة المعارف كان طابع التعليم في مصر باستثناء الازهر اما حربي أو عملي وثيق الصلة بالتعليم الحربي .

وكانت المدارس الخصوصية (دون العالية) هي : الطب البيطري ، والبيادة ، والسواري ، والمحاسبة القبطية والزراعة ، وكانت المدارس العالية هي (الطوبجية) و (اركان الحرب) ، و (المهندسخانة) ولا توجد مدارس للعلوم الانسانية في مختلف مراحل التعليم^(٣٩) .

وشهد التعليم العالي في بداية تولي علي مبارك نظارة المعارف اهتماما وحقق نهضة ، وظهرت إلى حيز الوجود مدارس العلوم الانسانية مثل (مدرسة الادارة) ، و (الحقوق) سنة ١٨٦٨م ، و (مدرسة اللسان الحبشي) سنة ١٨٦٨م ، و (مدرسة اللسان المصري القديم) سنة ١٨٦٩م ، و (فرقة الرسم بالمدارس الملكية) ، و (فرقة النقاشين) ١٨٦٩م ، و (دار العلوم) سنة ١٨٧٠م ، و (الالسن) (قلم الترجمة) سنة ١٨٧٨م^(٤٠) .

ولم يكن اهتمام علي مبارك بالتعليم العالي على حساب المتوسط (التجهيزي) أو الابتدائي ، كما لم يهتم بجانب ويهمل الآخر ، فعنايته بالعلوم الانسانية لم تقلل من عنايته بمدارس العلوم العملية ، فهو

الذي اقام (مدرسة العمليات الجهادية) ، و (مدرسة العمليات الملكية) ، و (فرقة التلغراف) ، وكذلك جملة فرق متنوعة أخرى مثل (كالمساحة والمحاسبة) سنة ١٨٦٨م ، و (فرقة عمليات المرور) سنة ١٨٧٠م ، وبذلك يتفق مجموعة من المؤرخين على تسميته بـ (ابو التعليم الصناعي) ، فجميع المدرس الصناعية التي انشأت في مصر منذ توليه نظارة المعارف سنة ١٨٦٨م حتى وفاته قد انشأت في زمن نظارة للمعارف فقط ، فلم تقم في مصر مدرسة صناعية واحدة إلا في سنة ١٩٠٢م ، أي بعد وفاته بعشر سنوات (٤١) .

واما بالنسبة للريف فقد وجه عناية الدولة للاهتمام بالتعليم في الريف بعد أن كان مقتصرًا على العاصمة وبعض المدن الكبرى ، فقام بتحويل المكاتب الأهلية في القرى والريف وكان عددها (٥٠٠٠) مكتب إلى مدارس ابتدائية نظامية ، وهياً لها سبل أداء رسالتها مادياً وادبياً ، وتوسع في عددها بالمدن الإقليمية بالبلاد ، وانشأ للمكاتب الأهلية ادارة خاصة بها في ديوان المدارس سنة ١٨٧١م ، كما واجرى احصاء للمتعلمين يومئذ فوجد نسبتهم ٥% (٤٢) .

ولم يقف علي مبارك من هذا الأمر مكتوف الايدي وانما قدم طلبا إلى الخديوي بضرورة التبرع من املاكه الخاصة لاجل التوسع في التعليم ، فصدرت اوامر الخديوي في (٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٨هـ / ١٤ يونيو سنة ١٨٧١م) بتخصيص عشرة الاف فدان من اطيان الميري ، وعشرة الاف فدان من اطيان الاواسي ، وجميع الاملاك التي آلت إلى بيت المال ، ومبلغ سبعة الاف كيس (٣٥٠٠٠ جنية) للمكاتب الأهلية (٤٣) .

وتأسيسا على ما تقدم فقد ظل اهتمام علي مبارك قائما وسعيه دائما لتنظيم هذه المكاتب وتحديثها ، فقد طلب في مذكرة إيضاحية قدمها عن التعليم في مصر في (٢٤ جمادي الآخرة سنة ١٣٠٧هـ / ١٥ فبراير سنة ١٨٩٠) أن يقوم مكتب نظامي ابتدائي من الدرجة الثالثة في كل بلد لا يزيد تعداد سكانه عن (١٠٠٠ نسمة) ، ومن الدرجة الثانية اذا زاد عدد السكان عن (١٠٠٠ - ٥٠٠٠ نسمة) ، ومن الدرجة الاولى للبلد الذي يتجاوز عدد سكانه الخمسة الاف (٤٤) ، وطالب علي مبارك مجالس المديرية بتدبير المباني لهذه المؤسسات التعليمية والانفاق عليها وصيانتها ، وان تنشأ بدار العلوم فرقة ابتدائية خاصة لتخريج معلمي هذه المكاتب ، وافرت نظارة المعارف مشروعة هذا في (١٣ محرم سنة ١٢٠٣هـ / ١٨ اغسطس سنة ١٨٩٠م) (٤٥) .

ووجه علي مبارك اهتمام الدولة إلى تعليم البنات بعد عام واحد من توليه نظارة المعارف ، ففي (٢٤ محرم سنة ١٢٨٦هـ / ٦ مايو سنة ١٨٦٩م) ارسل الخديوي إلى علي مبارك خطابا قال فيه : " قد اقتضت ارادتنا انه بمعرفتكم يجري انشاء محل مدرسة بجنيونة تعليم البنات في ارض الميري المتخلفة من بعد التنظيم في شارع باب اللوق ، فيلزم المبادرة باجراء مقتضى ذلك ، كما هو مطلوبنا .. " (٤٦) ، فمنذ ذلك التاريخ بدأ اهتمام الدولة بالتعليم العام للبنات بعد أن كان تعليمهن مقتصرًا على الولادة منذ عهد محمد علي .

وكان علي مبارك يبحث في السبل كافة لتعليم الناس ما هم في حاجة إليه ، فلا يستكف أن يكون معلما للهجاء ، وقد قام زمنا بتعليم الجنود ، ويقول في هذا الصدد : " كيف لا ارغب انتهاز فرصة تعليم ابناء الوطن " ، كما قال أيضا : " كنا مبتدئين نتعلم الهجاء ، ثم وصلنا إلى ما وصلنا إليه " (٤٧) .

ولم يترك علي مبارك بابا من ابواب المعرفة إلا وكان له فيها ركن ، وكان له فيه اثر من المعارف المدرسية إلى المعارف العامة فالمعرفة التخصصية ، فمن الهندسة المدنية والعسكرية إلى العلوم والرياضيات ، ومن الجغرافية إلى التاريخ ، ومن خواص الاعداد إلى المكايل والاوزان ، ومن علوم الدين إلى علم الاخلاق والاجتماع ، بل وعلم التغذية وما يتصل بها من معارف طبية ، فقد كان الرجل موسوعيا يختزن قلمه أو تختزن ذاكرته كل ما يقرأ ، ويسوقه احيانا على حاله أو يطبعه بفكره تحمله حقيقة ما إلى فكرة ثم تسوقه أخرى إلى نقيضها (٤٨) .

وكان علي مبارك يكتب للناس كل ما يرى أنهم بحاجة إليه ، ولا يبخل بعلمه على احد ، ولا يمنعه عن راغب ، بل انه ليغذي الناس به ، فيقول في مقدمة كتابه (علم الدين) انه : " رأى النفوس كثيرا ما تميل إلى السّير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة ، فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان ولاسيما عند السّامة والملل من كثرة الاشتغال ، وفي اوقات عدم خلو البال ، فحداني هذه الايام نظارتي لديوان المعارف إلى عمل كتاب اضمه كثيرا من الفوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها إلى مطالعتها ، ويرغب فيها رغبته في ما كان من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك الفوائد ينالها عفوا بلا عناء حرصا على نعيم الفائدة وبث المنفعة " (٤٩) .

وأدرك علي مبارك نعمة التعليم عليه وفضله فيما وصل إليه في وطنه فيقول : " حتى صرت من ابنائه المعدودين ورجاله المعروفين " (٥٠) ، وعليه أن يفني بدينه إليه ، وان كان على يقين من انه وان استوفى الجهد وقضى العمر في خدمته ، ويقول في ذلك : " لم اقم بعشر معشار ما عليّ من واجباته " ، وكأنه كان يريد لكل مواطن أن يكون (علي مبارك) آخر ، فلا يكتفي بافتتاح المدارس أو اعداد المعلم الصالح ، أو تيسير وسائل الثقافة للجميع ، بل يلج ميدان التأليف لنرجي إلى الناس علمه ومعرفته ، ويدلي اليهم براهه وفكره ، فكانت اكثر كتبه مدرسية كتبت للمدارس أو للمبتدئين في دراسة العلوم الهندسية أو لنشر البسائط العلمية التي يحتاجها الناس في حياتهم ، اما القليل منها فهي الاثر الخالد لجهد العلمي ، ومن هذه الكتب المدرسية بترتيب ظهورها هي كالاتي :

١ . تقريب الهندسة

٢ . حقائق الأخبار في اوصاف البحار

٣ . خواص الاعداد

٤ . تنوير الافهام في تغذية الاجسام

٥. تذكرة المهندسين وتبصرة الراغبين

٦. حروف الهجاء والتمرين على القراءة

٧. الميزان في الاقيسة والمكايل والموازن

ويعد علي مبارك في مجال التدريب رجل التربية والتعليم آنذاك في مصر ، إذ كان يفكر في هذا الحقل تفكير أصحاب الرسالات ، فهو يدرك المصاعب والعقبات التي تواجهه ، وكذلك يعي ضرورة الصبر من أجل الوصول إلى الغاية المرجوة وذلك لان التربية عنده عملية تطور اجتماعي يزيد بكثير عن محو الامية وتعليم القراءة والكتابة ، ولذلك فان التربية من الامور الصعبة التي يلزم لها زمنا طويلا لكي ترسخ ، إذ أن هناك عادات وتقاليد واعتقادات سائدة في المجتمع ، ولا يمكن تغييرها بسهولة بمجرد حلول افكار واعتقادات جديدة ، وانما يلزم لها مدة طويلة لكي تستطيع الامم استيعابها وتطبيقها ومن ثم نبذ الافكار والاعتقادات القديمة (٥١) .

ويمكن القول أن عملية التربية والتعليم عنده عملية تنمية اجتماعية شاملة ، وهي تحضّر وحضارة يلزمها زمن حضارة العلم اللازم لنضج ثمراته ، وليست قراءة وكتابة كما يراها الآخرون ، بل هي بالدرجة الاساس المعلم القدوة والمقتدر على اجتذاب تلاميذه في شوق ورغبة إلى معرفة عالم العلم الجديد (٥٢) .

٤. المجتمع :

أن المجتمع الفاضل في رأي علي مبارك هو مجتمع العلم والعدل ، لان حياة الإنسان الروحية من حيث التدين متدرجة ولاسيما اذا كان مستتيرا بريئا من الخرافة في اطار العلم ، فبالعلم يحقق الإنسان كجنس ثراء الدنيا والآخرة ، اما العدل فانه الضمان كي يكون هذا الثراء في الدنيا عائدا إلى مستحقيه وصنّاعه ، كما هو الحال مع ثراء الآخرة الذي يحكم في المولى سبحانه بالقسط المستقيم .

ويعد العدل عند علي مبارك نسبي ، وهو في ذلك متفق مع كل المفكرين والباحثين ، وهو يدل على عدل المرحلة التاريخية التي عاشها ، والمجتمع الذي القى بثقله كي تعيشه مصر والشرق في ذلك الحين مرحلة التحول من اقطاع العصور الوسطى وتخلفها وظلماتها إلى المجتمع البرجوازي الحديث والمستنير بكل ما كانت تبشر به الطبقة الوسطى من صور مجتمعا البرجوازي الجديد والمنشود ، فقد كانت تلك أحلام المستنيرين ودعاة التقدم في مجتمع لم يكن الفكر الاشتراكي أو تطبيقاته قد أصبحت فيه بعد قضية مطروحة على الناس والحياة (٥٣) .

وقد صور مفكرنا الكبير علي مبارك هذا المجتمع المنشود في صورة حديثة لمجتمع (المدينة الفاضلة) الذي كتب عنه (أبو نصر الفارابي) (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٥٠ م) ومن هنا نحو من المفكرين القدماء ، ويعد العالم في فكر علي مبارك كما هو عند أصحاب (المدينة الفاضلة) " شخص واحد ذو اعضاء " ، وفي هذا العالم مصالح خاصة ومصالح عامة ، ولا بد من تقديم المصالح

العامة على المصالح الخاصة ، ولاسيما وان المصالح العامة اذا دققنا النظر فانها تتضمن في داخلها المصالح الخاصة ، وعلى الموقف من هذه القضية ، قضية العلاقة بين المصالح العامة والمصالح الخاصة ، وتغليب أي منها على الاخرى يتوقف الصلاح والفساد في هذا العالم ^(٥٤) .

وحول هذه العلاقة تحدث علي مبارك قائلا : " فاذا نظرنا في احكام المصالح العامة وتأييدها وتمتين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها ، جارية على منهاجها ، ومتى كان النظر مقصورا على المصالح الخاصة نجم الفساد واستحكم ، ولم يتم امر مصلحة ، لما يكون في الاستئثار من المباغضة والمشاحنة " ^(٥٥) .

ويضيف علي مبارك : " ولكي يتحقق هذا المجتمع القانوني الملتزم بالقانون فلا بد أن يكون الحاكم والمحكوم امام هذا القانون سواء ، بل وان يكون خضوع الحاكم للقانون مقدما على طلب الخضوع له من المحكوم ، فالواجب على ولاة الامور أن لا يقطعوا في حكم إلا من القانون ، ولا يكفي أن يحكم القانون إذ لا بد أن يكون هذا القانون عادلا ، لانه بغير العدل لا يتم صلاح ، وهذه الصفة اكمل الفضائل لشمول اثرها ، وعموم نفعها ، واليها الاشارة بقوله (صلى الله عليه واله) : (بالعدل قامت السموات والارض) ، إذ لم يخلق الله تعالى احلى مذاقا من العدل ^(٥٦) .

ويقول علي مبارك : " أن ادارة الاعمال الدنيوية محتاجة إلى عمليين ، عمل بالابدان ، وعمل بالارواح ، وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس فجعل بعضهم اذكياء ، والبعض اغبياء وكفل بعضهم بعضا ، فكان اشتغال اذكياء الناس بالفكر في مصالحهم وتدبير ما تحسن به احوالهم ، فلزم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية أن يخدمهم بقية الناس بابدانهم ، ويريحهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم ، فظهر الفقر والغناء ، وبموجب ذلك نجم بينهم التحاسد والتباغض والتعادي " ^(٥٧) .

ويقسم علي مبارك العمل إلى :

١. فكري ويدوي : ويرى في ذلك المنشأ للتفاوت الطبقي ويسمى الطبقة (وظيفة) .
٢. كذلك يدعو إلى أن تكون المفاضلة والتقدم والتأخر بناءً على العمل ، وفي داخل اطار (الوظيفة) أي الطبقة ، ولا يصح أن يمد أهل طبقة عيونهم إلى ما تتمتع به أهل طبقة أخرى .
٣. والحارس لذلك هو جهاز الدولة وقوانينها الوضعية ، ولما لم تكن في كبح جماح التحاسد والتباغض والتعادي جاءت القوانين الدينية ووعاظها والداعون إلى الزهد وذم الدنيا ، فكرسوا جهودهم ، ليثبت أهل القلة على اشغالهم الشاقة ، ويكفوا عن معارضة المكثرين ومضاربتهم " ^(٥٨) .

ولا يرى علي مبارك في هذا المجتمع الذي يصوره هذا النص ، العدل الذي تحدث عنه ودعا إليه ، لانه يرى أن وجود جهاز الدولة بمؤسساته القمعية القهرية ، ويرى في استعانة الجهاز بمؤسسات الوعظ والزهد وذم الدنيا الدليل على اقتصار العدل والإنصاف ، ويقول : " أن الناس لو انحازوا إلى العدل وحققوا الانصاف لما احتاجوا إلى اجهزة القمع هذه ، ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا إلى شيء من

ذلك " (٥٩) ، وكان المصلحون في هذا المجتمع يتطلعون إلى التقدم وإلى اسهام أصحاب رؤوس الاموال والمدخرات في تكوين الشركات المساهمة لتصنع في اقتصادنا ما صنعت مثيلاتها في اوربا البرجوازية ، ودعا علي مبارك إلى أن تسلك مصر ذلك الطريق ، ومارس عمليا وضع هذه الافكار في التطبيق عندما تولى نظارة الاشغال ، فان الرجل وهو يختار هذا الموقف الاجتماعي ، ويدعو إلى مجتمع برجوازي جديد يعلي من قيمة العمل وينشد قدرا من العدل النسبي في اطار طبقات تتخذ من العمل والحرف والصناعات مجالا لتنافسها (٦٠) .

وكان علي مبارك مع مصلحي عصره والجيل المستتير الذي بدأ برفاعة الطهطاوي قد رأوا في المجتمع البرجوازي المستتير المهمة التي يجب الكفاح من اجل الانتقال بالبلاد اليها ، لان النجاح فيها يعني التخلص من بقايا العصور الوسطى ، وتحقيق النموذج الاوربي سواء في التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية أو في الاستتارة والتنوير دونما تعارض مع المواريث والموروثات الثانية وغير الدخيلة في تراثنا الفكري والديني (٦١) ، واما موقف علي مبارك من المرأة فقد وقف موقف رجل الدين المسلم المتتور ، في وقت ظهرت فيه آراء تأثرت بالدعوات الغربية لتحريرها من أصحاب الاتجاه الأول من قضية المرأة ، وقد سبق رفاعة الطهطاوي كتاب الشرف جميعا إلى الحديث عن قضية المرأة تعليما وعملا ، فهو منذ التاريخ الذي كتب فيه (تلخيص الابريز) (٦٢) سنة ١٨٣٠م قد اتخذ موقفا مناصرا لتحريرها من اسر العصور الوسطى ، ولاسيما عندما عرض صورة المرأة الفرنسية ، وبدد اوهام عصره ومجتمعه الشرقي حول اقتتران التحرر والاختلاط بالانحلال والتخبط ، فقد جاء بعده علي مبارك فكانت روايته (علم الدين) المكان الذي عرض فيه فكره عن قضية المرأة ، وهي الرواية التي كتبت في نهاية خمسينات القرن التاسع عشر (٦٣) .

وظهرت في تلك الاجواء التي عاشتها مصر اتجاهات فكرية انطلقت من الخلفية الفكرية والعقائدية لهؤلاء المفكرين العرب من الموقف من المرأة ، مثل الاتجاه الأول الذي وازن بين المفهوم الغربي والاسلامي للمرأة ودائما يميل إلى مفهوم الغرب والاسلام للمرأة ، منطلقين من أن حريتها وحقوقها قد اقرها الشرع الاسلامي ، في الوقت الذي اخذوا من الغرب بعض الافكار التي هي في جوهرها لا تتنافى مع تعاليم الاسلام ، وكان رائد هذا الاتجاه (رفاعة الطهطاوي) ثم (محمد عبده) ، و (رشيد رضا) ، و (ابن باديس) في المغرب ، و (وعلال الفاسي) ، و (خير الدين التونسي) في تونس (٦٤) .

وكان الاتجاه الثاني متأثرا متأثرا كبيرا بافكار الغرب تجاه المرأة ، وباستقراء هذا الاتجاه نجد انه كان يمثل وجهة النظر الغربية عن المرأة ، ومثل هذا الاتجاه (لطفى السيد) ، و (وسلامة موسى) ، و (قاسم امين) (٦٥) ، وانحاز علي مبارك إلى صف تحرير المرأة الشرقية وتطويرها في بعض القضايا ، في حين وقف مترددا امام بعض القضايا الاخرى ، ففي القضايا التي انتصر فيها للمرأة كان واضحا وصريحا ، اما مواقفه المترددة فقد اختار لتغليب التردد أو لتفادي الحرج وايقار السلامة أن يسوق آراء

الفرقاء المتصارعين حول الصواب في هذه القضايا على أسنة ابطاله في (علم الدين) ، إذ انه قد وقف إلى جوار حق المرأة في التعليم ، بل كان اول ناظرا للمعارف ينهض بافتتاح المدارس الحكومية التي تتعلم فيها الفتيات علوم المنهج العام بعد أن اقتصر تعليمهن على الولادة منذ عصر محمد علي ، و (الشيخ) بطل روايته قد تزوج من فتاة فقيرة غير متعلمة ، فعلمها القراءة والكتابة حتى غدت ندا له في القراءة وتحصيل المعلومات (٦٦) .

ويعقد علي مبارك في روايته مسامرة كاملة (المسامرة الخامسة) ، إذ يدير فيها حوارا بين الشيخ علم الدين وزوجته ، فاذا الآراء الاكثر دقة والأقرب إلى الصواب تأتي جميعها على لسان الزوجة لا الزوج ، وهنا نلاحظ دلالة هذا الموقف على تقدير علي مبارك لعقل المرأة الناضج وكفاءتها اذا هي حصلت الأدوات وأخذت منها ما يأخذ الرجل (٦٧) ، وقد وقف علي مبارك من هاتين القضيتين من قضايا تحرير المرأة (التعليم ، و القدرات العقلية والكفوية) مع التيار التقدمي والثوري والمستنير ، في حين نراه قد وقف موقف المتردد في قضيتي (تعدد الزوجات ، ورفع الحجاب والاختلاط) (٦٨) .

واكتفى علي مبارك من قضية (تعدد الزوجات أو وحدانية الزوجة الواحدة) بعرض وجهات نظر الفريقين دون أن يحسم النزاع الناشب بينهما ، فقد كان لعلي مبارك آراء عن هذه القضية سواء في وضعها التاريخي أو في واقعها الذي كان يجري على ضوئه النقاش ، ومن هذه الآراء :

الرأي الأول : يرى فيه أن تعدد الزوجات ليست خاصة اختص بها الشرق ، ولا أمرا انفرد به الاسلام والمسلمون ، بل هو عام ولم يمنعه إلا النصراني فقط ، حتى أن من قبلهم كانوا يجوزون التعدد .

الرأي الثاني : اما فيما يتعلق بالاسباب التي ادت تاريخيا إلى تعدد الزوجات ، فيقدم عددا من الاسباب الواقعية والصادقة ، فكثرة عدد النساء عن عدد الرجال بسبب الحروب كانت سببا من الاسباب ، وكذلك رغبة الرجال في تعدد الزوجات كانت سببا آخر .

الرأي الثالث : وفيما يتعلق بموقف الاسلام من هذه القضية القديمة ، فان علي مبارك يرى أن الاسلام قد التزم فيها موقفه المتميز الموقف الوسط ، ففي الشريعة الموسوية كان التعدد مباحا بلا حدود ، وفي الشريعة العيسوية كانت وحدانية الاقتران ، فجاء الاسلام باباحته إلى اربع كموقف وسط بين التقيد بالوحدة وبين الاباحة دون حدود (٦٩) .

الرأي الرابع : يعترف فيه علي مبارك أن الواقع الراهن للمجتمعات الإسلامية قد خرج بهذا الأمر عن حدود النفع والصواب ، وان التعدد غدا مصدرا لفساد اجتماعي تعاني من اثاره هذه المجتمعات .

واما فيما يتعلق بالحجاب فقد عرض علي مبارك نموذجين من الآراء ، الأول : صورة المرأة الاوربية المتعلمة المتحررة ، وحجج المستشرق الانكليزي من خلالها ترى الدعوة إلى تحرر المرأة من قيود

الحجاب ، ولانخراطها في شؤون في المجتمع جنباً إلى جنب مع الرجل ، والثاني : اختيارات الشيخ (علم الدين) وإراءه عن الحجاب الذي يعصم المرأة والرجل ويقيد المرأة ، ترى من خلاله منطق التيار المحافظ على واقع القرون الوسطى وقيم عصر الاقطاع^(٧٠) ، وقد عرض علي مبارك النموذجين دون أن يحسم الموقف أو أن ينحاز لأي منهما ، وعندما يدور حوار بين (علم الدين) وصاحبه المستشرق الانكليزي حول هذه القضية (الحجاب ام الاختلاط) ، نجد علي مبارك يعرض على لسان المستشرق ، حجج المحدثين الراعين لتحرير المرأة ، فيقول : " أن التربية هي العاصم للمرأة من الزلل ، وهي حصن الشرف ، وليس الحجاب في المنزل ، إذ الحجاب لن يعصم النساء من الرذيلة ، لان صلاتهن بالعالم واهل الرذائل فيه لن تقطعها جدران البيوت ، وليس سوى التربية الحسنة عاصما وحصنا للمحجبات " (٧١) .

وتطرق علي مبارك إلى جانب آخر من المجتمع ، يتمثل (بالدين والحياة) فكان يدعو إلى جعل الدين الصحيح وسيلة من وسائل التربية والتقدم وتطوير الحياة لاهل وطنه ودينه ، فكتب علي مبارك في هذا الموضوع الكثير من المقالات ، ونشرها في مجلة اصدرتها مشيخة الازهر ، وذلك اواخر القرن التاسع عشر ، وكانت تحمل اسم (الازهر) ، إذ دعا فيها دعوته تلك ، وكان فيها عالما دينيا مستتير الذهن ، وداعية مخلصا ، كعادته دائما للتقدم عن طريق العلم ، إذ خصصت مجلة (الازهر) القديمة صفحاتها لرجل التربية والتعليم الأول (المغفور له علي مبارك) الذي كتب بعض المقالات التربوية القيمة ، ومنها مقالة تحت عنوان (مفاتيح الكنوز)^(٧٢) ، وجاء في هذا المقال ما نصه : " والله سبحانه وتعالى لم يبيح لنا من الافعال إلا ما يهمننا في صلاح ديننا أو دنيانا ، وما لا يهمننا في شيء منهما أن كان فيه ضرر يلحق احدهما فحرام ، والا فتركه والاعماض عنه احق واولى " .

ويذكر علي مبارك قول رسول الله (صلى الله عليه واله) : (من حُسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه) ، ويضيف قائلاً : " انه طالما فكرت في الإنسان ومزاياه ، وما اودعه الباري من الحواس المرشدة والنفس المفكرة والعقل المدبر ، والبيان المصور ، واللسان المعبر ، والقوى المنفذة ، والاعضاء العاملة التي يجمعها تصرف في انواع العالم ، وبسط يده على كل الكائنات ، وكان له السلطان الاعظم على ما في الارض ، مع ما به من الضعف وتزاحم العلل والاعراض وكثرة الحاجة وقصر الحركة ، وهو متصرف بجميعها عن وجهتها منحرف بها عما خلقت لاجله ، والباري لم يركب فيه تلك القوى وهذه الالات إلا ليجعلها عوامل تحت سلطة التمييز والتدبير يصرفانها بمعيار الحكمة في مجاري ثمرات ما احاطه من الكائنات وجعله حوله من كنوز الخيرات " .

ويرى علي مبارك أن على الإنسان أن يعمل طبق ما يحقق حكمة الباري فيه مع انه لم يكفه أن يأتي إلا بما في وسعه من العمل ، وسخر له ما تعجز عنه قدرته وتقتصر دونه همته ، ولم يبق له إلا ما هو بموازاة امكانه كما اشير إلى ذلك في قوله تعالى : ((فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (٢٨) وَزَيَّنَّا وَنَحْلًا (٢٩)))^(٧٣) ، وقهر جميع الكائنات وجعلها مادة صنع حواسه التي هي سبل عمله ومجاري تفكيره في هذا العالم ، ففي قوله

تعالى : ((وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨))) (٧٤) ، فالشمس والنجوم والهواء والماء والحيوان والنبات والتراب وسائر الموجودات على اختلاف أنواعها وتباين خصائصها مخلوقة ومذلة لفائدة الإنسان ومصالحته ، وقد امن عليه الخالق بذلك في مواضع شتى من كلامه المقدس فقال : ((وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣))) (٧٥) ، وقال تعالى : ((وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢))) (٧٦) ، وقال تعالى : ((وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤))) (٧٧) ، وهكذا مضى علي مبارك يعالج موضوع العقل البشري ، ويرسم سبل الصراط المستقيم كما وضحاها الله تعالى في كتابه العزيز ، ولا سبيل إلى الاتيان بالاعمال الحسنة إلا حيث يتتقف العقل بانواع المعارف الحقة ويهذب بالتربية والاداب فاذا تم هذا للمرء اتى باعمال تامة الحسنة رائقة الصنع، رائعة الابداع ،

ما وهب الله لامرئ هبةً احسن من عقله ومن ادبه

هما حياة الفتى فان فقدا ففقده للحياة اليق به ! (٧٨)

وتحدث علي مبارك في مقال آخر نشره في المجلة نفسها عن العدل العام ، وكيف انه بالعدل قامت السماء والارض ، فقال : " فبالعدل تخصب الارض ، وتثمر الاموال ، وتنظم الاحوال وتدر الارزاق ، ويزول الشقاق ، وبه يستقيم الدين ، ويقوى حبله المتين ، وذلك أن الشرع لا يحفظ إلا بالسلطان الذي يحرسه ويذب عن حرمة ، كما أن السلطان لا بقاء له إلا بالدين القويم إذ هو طريق العدل المستقيم ،

فالدين بالملك يقوى والملك بالدين يبقى

فاذا قاد الامة راعيها بازمته ، ونهج شرعته ، اتصلت الاسباب ، وفتحت الابواب ، وسهل كل عسير في الزمن اليسير ، وراجت الامور ، وذهبت الشرور ، ووافى السرور ، والتأمت القلوب ، وانجلت الخطوب ، وغرست في الافئدة ، وصمدت على مر الايام ، سيرته " (٧٩) ، ويقول علي مبارك : " لا يخفى أن تربية الملل - أي الشعوب - امر صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة ، واخلاقا راسخة في الازهار نديمة ، وافكارا فاسدة ، واعتقادات كاسدة ، فلا تزول بمجرد بعض التجددات ، بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن إلى الممات ، بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان ، فلا تتعدم بالكلية إلا بعد انقراض جميع هؤلاء أو اكثرهم ، فعلى حكم العقل يلزم التريص إلى انقضاء ثلاثة اجيال ، أي مائة سنة أو مائة وخمسين سنة " (٨٠) .

وتأسيسا على ما تقدم يمكن القول أن علي مبارك يكاد يكون داعية جهير الصوت إلى الحياة الاوربية والى نمط من السلوك الذي يعرفه من حياتهم ، فهو يشرح باسهاب طويل نظام (المسرح الاوربي) ويشيد بفائدته في التهذيب والتربية وضرورته لحياة الناس في الثقافة والترفية والتعليم واتخاذ العبرة ،

وكذلك يشرح بالتفصيل الرضا انماط الحياة الاوربية في الحديث والحركة واللباس ، وادابهم في الاجتماع والطعام ^(٨١) ، ويمكن القول أن من الدعوات التي يعتقد ان علي مبارك سبق بها عصره هي ثمره من ثمرات تعليمه الاوربي واتصاله بالحياة الغربية ، هو انكاره على أهل الشرق انسياقهم إلى ما يدعوهم إليه (أهل الزهد والورع) من الانصراف عن الجد والكد والعمل الدائب والسعي القوي المثابر ^(٨٢) .

وكان لهؤلاء الدعاة في القرن الماضي من السطوة والسيطرة على مشاعر الناس وعواطفهم ما لا نستطيع أن ندرك مداه ، لذلك نجد دعوته للتمرد على سطوة هؤلاء وسيطرتهم دعوة قائمة على العبارة اللينة والاشارة البينة ^(٨٣) ، ودعا علي مبارك إلى فهم الأدب الاوربي ومستحدثات فنونه في الفكر والانتاج الذهني كالقصة والتمثيل ، ولم تكن دعوته إلى هذا الأدب والفن دعوة مجردة ، بل كان يصحبها العمل الجدي ، فنجد في ترجمته (محمد افندي عثمان الونائي) وهو احد معاصريه الذين استكتبهم تاريخ حياتهم وضمنها كتاب الخطط التوفيقية ، نجد في هذه الترجمة أن صاحبها نقل إلى العربية كتاب قصص (لافونتين) المشهور في الأدب الفرنسي وسماه (العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ) ، وهذا الكتاب (لافونتين) كما تعرف قصص صاغها على السنة الحيوان ، كما ترجم الونائي القصة التي عرفها قرآء العربية بعد ذلك من ترجمة السيد مصطفى لطفي المنفلوطي وهو (بول وفرجينى) وخلق الونائي على بطليها اسمين عربيين طريفيين قريبين من اسمي بطليها فسمى ترجمته لهذه القصة (قبول وورد جنة) ^(٨٤) .

٥. الوطنية :

تعني كلمة وطن اصطلاحا الواو والطاء والنون كلمة صحيحة ، فالوطن : محل الإنسان ، واوطنت الارض ، اتخذتها وطنا ^(٨٥) ، أن مفهوم الوطن عند بعض المفكرين الذين سبقوه أو الذين عاصروه هو كما يأتي :

- مفهوم الوطن عند رفاة رافع الطهطاوي : ويعد اول مفكر مصري في العصر الحديث ، إذ لديه البدايات الجنينية لفكرة الوطنية ، فقد تعرض لفكرة الوطنية المصرية في كتابه الأول (تلخيص الابريز في تلخيص باريز سنة ١٨٣٤ م) ، وكتب بيتا من الشعر يقول فيه :

لئن طلقت باريسا ثلاث فما هذا لغير وصال مصر ^(٨٦)

وقد قدم تعريفا للوطن والوطنية يقول فيه : " أن الوطن هو عش الإنسان الذي فيه درج ومنه خرج وجمع أسرته ومقطع سرته ، وهو البلد الذي نشأته وتربته ، وغذاؤه وهواؤه ، ورياه فسيحة ، وحلت عنه التمام " ^(٨٧) .

- مفهوم الوطن عند جمال الدين الافغاني ^(٨٨) : وقد ميز الافغاني بين نوعين من الوطنية ، الأول : وهو الذي رفضه ولم يعرفه ، ذلك المعنى الضيق الذي يجعل صاحبه حبيس اقليم من الاقاليم ، أو متعصبا مفرط التعصب لامة من الامم دون سائر ابناء النوع الانساني على الوجه العموم ، والثاني :

وهو الذي امن به ودعا إليه وهو ذلك المفهوم الانساني للوطنية الذي يجعل منها دائرة تسبق دائرة العقيدة الروحية التي تعقبها في الاتساع الدائرة الانسانية الشاملة لمجموع بني الإنسان .

- مفهوم الوطنية عند الشيخ محمد عبده ^(٨٩) : فهو يعتقد : " أن الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقا ، فهو السكن بمعنى أن نقول استوطن القوم هذه الارض وتوطنوها أي اتخذوها مسكنا " ، فالارض المشتركة عند الشيخ محمد عبده هي اساس رابطة الوطن ، وهنا يتفق الشيخ محمد عبده مع رفاة رافع الطهطاوي بربط حق المواطنة بكفالة الحقوق والواجبات السياسية ^(٩٠) .

- مفهوم الوطنية عند احمد لطفي السيد ^(٩١) : فيعرفه على انه : " مركز المصلحة العامة لجماعة متضامنين يشعرون بحاجاتهم إلى التعاون في دفع الضار وجلب النافع وربما صح أن نقول بدل قولنا (مركز المصلحة) انه (آلة المصلحة) ومتى تعطلت الوظيفة في هذا المركز أو هذه الآلة فقدما الاسم وبطل التشبث بذكره " .

- مفهوم الوطنية عند علي مبارك : لم تكن الوطنية عند علي مبارك تعصبا ، ضيق الافق لاقليم من الاقاليم أو وطن من الاوطان حتى ولو كان الوطن هو مصر التي اخلص لها واحبها ، وانما الوطنية عنده موقف يصدر صاحبه من عشق للحضارة فيندفع عاشقا لموطنها ومهددا ، من هنا كانت الوطنية عنده كما تمثلت في حبه لمصر موقف حضاريا ونزعه لا تعصبا ضيق الافق لاقليم من الاقاليم ^(٩٢)

وتبدو اهمية فكر علي مبارك في الوطنية بوصفه احد مفكري الوطنية في تراثنا الحديث ، اولئك الذين كان الطهطاوي رائدهم في اعادة مصطلح (الوطنية) ثانية إلى ادبنا السياسي وقاموسنا الفكري بعد أن اهملته عصورنا الوسطى ولاسيما (المملوكية والعثمانية) عندما قسمت البشر على اسس دينية ، وأسقطت حدود الاوطان والقوميات والحضارات ، فجاءت هذه المدرسة المستتيرة الحديثة للتحدث عن (الوطن) وعن علاقة (المواطنة) التي تجمع ابناء الامة الواحدة ، وتؤلف بينهم بصرف النظر عن المذاهب والأديان التي يتمذهبون ولها يدينون - فكانت طورنا جديدا في الفكر ، عكس الطور الجديد الذي دخل فيه الإنسان العربي طور العصر الحديث ^(٩٣) .

ويقول علي مبارك في الوطنية : " أن المدافعة عن الوطن واجبة على العموم لا فرق فيها بين مالك ومملوك وشريف وصعلوك ! ... ولقد صح الحكم بان مصر كانت ينبوع علوم الدنيا ، ومعدن كثير من خيراتها ، وان اهله هم الذين اوصلوا نوع الإنسان إلى أن تنقاد إليه اثار القدرة الالهية ! ... والمصريون هم اقرب الناس إلى الاصلاح واسرعهم تقدما في سبيل الفلاح ، اذا وجدوا حاملا على ذلك ... وقدما قيل : من علامات الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقه ، وإلى مسقط راسها مشتاقا ! " ^(٩٤) ، ويمكن القول أن الوطنية عند علي مبارك موقف يعبر عنه ويجسده العطاء ، عطاء المواطن لوطنه مهما اختلفت وتعددت صور هذا العطاء ، لانها قد نبعت من العطاء ، عطاء الوطن غير المحدود للذين اقلنتهم ارضه واطلنتهم سماؤه للمواطنين ، فهي علاقة (جدلية ... متبادلة) ، ومن ثم فانها عنده مرتكزة

إلى فلسفة تحكمها ، بل وتحكم كل ظواهر هذا الكون الذي نعيش فيه ... فبقدر ما تعطي السماء الأرض ، تعطي الأرض السماء ، وعلى قدر هبة الواهب يجب أن يقدم الموهوب له البديل والمقابل والجزاء ، وهكذا وجبت الوطنية ، أي استحق الوطن أن يسدد له الابناء بعض الدين الذي دأينهم به منذ المولد ، بل وقبل أن تشرق عليهم شمس الميلاد ... انها تعبير عن قانون الوحدة والتفاعل والتاثير والتاثر في هذا الوجود ، وبعد علي مبارك الوطنية عطاء تجعل (الوطني) متسقا مع القانون الذي يحكم ظواهر الكون وقواه ومكوناته ، اما غيره فهو الشاذ الناشز ، الخارج عن قانون الحياة والاحياء ، بل وعن سنة الجمادات والنباتات ، والحنين إلى الوطن مظهر معبر عن هذه القوة التي تمتلك الإنسان قوة (الوطنية) ففي الغربة يهيم الشيخ (علم الدين) عندما يتذكر وطنه ، وليس ذلك بالامر الغريب ، فلقد قيل : من علامات الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواقه والى مسقط راسها مشتاقة ! (٩٥) .

ويضيف علي مبارك في فهمه للوطنية قائلا : " وحتى الذين اصابت الوطنية عندهم العلل والامراض ، فمالوا إلى الغزاة الفرنسيين عندما قدموا تحت قيادة بونايرت سنة ١٧٩٨م فدخلوا تحت طاعة الفرنسيين وانظموا اليهم ، من القبط المصريين ونصارى الشام ومن بقي من المماليك الذين كانوا بمصر قبل دخول الفرنسيين اليها ، ثم رحلوا مع الغزاة المنسحبين سنة ١٨٠١م عندما راوا أهل مصر يتوعدون كل من دخل زمرة الفرنساوية بالقتل وبغيره ، حتى هؤلاء المرضى يلتقي الشيخ (علم الدين) ببعض منهم في رحلته بمرسيليا وباريس فيشهد ندمهم وعودة (الوطنية) صحيحة معافاة إلى قلوبهم وعقولهم فيحدثونه كيف أن حب الوطن لا يبرح من بالنا وافكارنا لا تقتر عن ذكر اهلنا ولو كنا نعلم الغيب لما كان الذي كان (٩٦) .

المبحث الثاني : وسائل الإصلاح عند علي مبارك :

ادرك علي مبارك أن الاصلاح الذي ينشده كان لابد من تحقيقه من ادوات ووسائل يمكن بواسطتها الوصول إلى الهدف المنشود إلا وهو تطور المجتمع ووصوله إلى حالة من التقدم والرفي ، ونتيجة لدراسته في فرنسا واطلاعه المباشر على التطور والتقدم الحاصل فيها ومقارنة مع واقع شعبه في تلك المرحلة الزمنية في القرن التاسع عشر ، وادرك أن خير وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه هو اعتماد ادوات ووسائل يمكن بها تحقيق ذلك الهدف الكبير ، ووجد أن اول تلك الوسائل هو الترجمة ثم الصحافة ثم التاريخ ، وسنتناول هذه الوسائل كاللاتي :

١. الترجمة :

وبدأت في عهد محمد علي باشا ، فقد ادرك منذ اللحظة الاولى أن التطور الذي تشهده اوربا كان نتيجة الإلمام بالعلوم والمعارف الكثيرة ، فقد اتجه محمد علي إلى استخدام الموظفين الأجانب ، ولكنه كان يدرك مدى الآثار السلبية التي يخلفها الأجانب على هيكل الدولة إذ انهم أرفقوا ميزانية الدولة ،

بسبب النفقات التي تنفق عليهم ، فهم يتقاضون مرتبات باهظة كما أن كثيرا منهم يجهلون اللغة العربية فيتعين لهم مترجمون ليكونوا عوناً لهم في عملهم (٩٧) .

ورأى علي مبارك أن علوم الغرب وحكمته وخططه قد سيطرت كلها أو معظمها في كتبه التي وضعها علماؤه ومؤلفوه ، فكانت الخطوة الأولى أن يمهد السبل لترجمة الكثير من هذه الكتب إلى العربية أو التركية ، ليسهل على أبناء البلاد الاطلاع عليها والافادة منها ، فقد عهد بذلك لكثير من الاجانب بترجمة بعض الكتب ، غير أنهم كانوا يتكئون أو يهملون عملهم حتى ليتم احدهم عمل ستة اشهر في خمس سنوات (٩٨) ، فاستعان في بادئ الأمر بالايطاليين لان الايطالية كانت لغة المشرق في ذلك الوقت ، ثم بالفرنسية ، فقد ترجمة إلى العربية كتب مدرسية وادبيات فنية ، كما ترجمت الكثير من الكتب إلى اللغة التركية ، وبالرغم من ذلك فقد كان عدد هؤلاء المترجمين قليلا ، وخبرتهم محدودة ، وكذلك عدد الكتب المترجمة لا يفي بالغرض (٩٩) .

وراح مبارك يلتمس طريقة أخرى لينقل بها علوم الغرب إلى بلده ، فوافد عدد من أهل البلاد إلى أوروبا ، ليتمكنوا من الدراسة والاطلاع على علوم الغرب وبلغة البلاد التي يوفدون إليها ، حتى إذا عادوا إلى مصر تمكنوا من الاحلال محل الاجانب في الوظائف المختلفة ، وفي تعليم ما درسوه لابناء امتهم ، وفي ترجمة الكتب الغربية ، ولذلك فقد ارسل محمد علي البعثات إلى أوروبا الواحدة بعد الأخرى ، قد عاد الكثير من اعضاء هذه البعثات وافادوا الفائدة الكبرى ، وحققوا اغراض محمد علي وحملوا العبء عن الاجانب (١٠٠) .

وكان محمد علي لا يعهد إلى اعضاء البعثات باي عمل إلا اذا استوثق من مهاراتهم ، وكان مقياسه في ذلك أن يقوم كل منهم بترجمة كتاب في الفن الذي اختص فيه ، واما الذين درسوا الصناعة فكان يختبرهم في اختصاصهم حتى اذا اظهروا مهارة وكفاءة استغنى عن خدمات الاجانب واحل محلهم ابناء البلد في الوظائف ، ولشدة اهتمام محمد علي بهذا الأمر فقد كان يؤكد في رسائله إلى طلاب البعثات على ضرورة ترجمة الكتب التي يدرسونها إلى العربية وارسالها إلى مصر ، كما كان يطلع على التقارير التي تعد عن طلاب البعثات ولاسيما فيما يتعلق باعمال الترجمة (١٠١) .

ونشطت حركة الترجمة بفضل جهود طلاب البعثات ولرغبة محمد علي في معرفة الاوربيين والاطلاع على مؤلفاتهم العلمية والادبية ونشر الحضارة الغربية ، فقد وصف عصره من جهة النهضة العلمية بأنه عصر الترجمة والتعريب (١٠٢) ، وبدأ محمد علي بالتفكير في الناحية الأخرى من الاصلاح فارسل في المدة (١٨٠٩ - ١٨١٦ م) بعثات مختلفة إلى ايطاليا ، فالاصلاح يعتمد على ركنين اساسيين في سياسة محمد علي باشا إلا وهما البعثات والمدارس ، فانشأ المدارس الواحدة بعد الأخرى حسب حاجة البلاد لها ، وكذلك تحديد اللغات الاجنبية التي تدرس في هذه المدارس ، والاشارة إلى من تولى ادارة المدارس والتعليم فيها من الاجانب والى جهود كل مدرسة في الترجمة ، ومن هذه المدارس هي (١٠٣) :

١. المدارس الطبية :

كان محمد علي باشا قد بدأ بتشكيل الجيش الجديد بعد عام ١٨١٥م ، فقد اقتدى بالجيش الاوربية في تشكيل جيشه ، وكانت العادة أن يلتحق عدد من الاطباء بكل فرقة من الجيش ، وان تنشأ لهذه الفرق المستشفيات الثابتة والمتنقلة ، وفي سنة ١٨٢٥م استدعى محمد علي باشا الدكتور الفرنسي (كلوت بك) ليكون طبيبا ورئيسا لجراحي الجيش المصري ، وقد سعى هذا الرجل منذ التحاقه بالخدمة للقضاء على سيطرة الايطاليين واحلال الفرنسيين محلهم (١٠٤) .

ومن المدارس الطبية التي شكلت في مصر هي :

- أ- مدرسة الطب البشري : أنشأت سنة (١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م) .
- ب- مدرسة الصيدلة : أنشأت سنة (١٢٤٥هـ / ١٨٣٠م) .
- ج- مدرسة الولادة : أنشأت سنة (١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م) .
- د- مدرسة الطب البيطري : أنشأت سنة (١٢٤٣هـ / ١٨٢٨م) (١٠٥) .

٢. المدارس الفنية :

- أ- المدارس الزراعية : انشأت سنة (١٢٤٨هـ / ١٨٣٣م) .
- ب- المدارس الهندسية : وكان اولها مدرسة المهندسخانة بالقلعة ، وقد أنشأت سنة (١٢٣١هـ / ١٨١٥م) .

٣. المدارس الصناعية :

- أ- مدرسة الكيمياء : أنشأت سنة (١٢٤٧هـ / ١٨٣١م) .
- ب- مدرسة المعادن : انشأت سنة (١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) .
- ج- مدرسة العمليات أو الفنون والصنائع : انشأت سنة (١٢٥٢هـ / ١٨٣٧م) (١٠٦) .

٤. المدارس الحربية :

- أ- مدرسة اسوان : انشأت عندما فكر محمد علي بتأليف جيشه .
- ب- مدرسة اركان الحرب : أنشأت في اكتوبر سنة (١٢٤١هـ / ١٨٢٥م) .
- ج- مدرسة البيادة : انشأت في الخانقاه في سبتمبر سنة (١٢٣٢هـ / ١٨١٦م) .
- د- مدرسة السواري : انشأت في الجيزة في ذي القعدة سنة (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م) .
- هـ- مدرسة الطوبجية : انشأت في طرة في سنة (١٢٤٧هـ / ١٨٣١م) .
- و- المدارس البحرية : انشأت في عهد محمد علي باشا ولكنها الغيت بعد سنة ١٨٣٦م (١٠٧) .

وبقي الشيء الآخر والمهم الذي اخذ محمد علي يفكر في ايجاد حل له وهو ايجاد المترجمين ، ولم يكن في المصريين من يصلح للقيام بهذا العمل غير (عثمان نور الدين) احد اعضاء البعثة الاولى ، فعينه سنة (١٢٣٧هـ / ١٨٢١م) امينا للمكتبة الموجودة في قصر اسماعيل باشا في بولاق ، وألحق به بعض المترجمين ليترجموا كتب الفنون الحربية وسائر الصنائع ، وبعض التلاميذ ليدرسوا الهندسة واللغات العربية والتركية والايطالية (١٠٨) .

ولم يستطع (عثمان نور الدين) من القيام بهذه الاعمال وحده ، ولم تكن المدارس الجديدة قد انشأت لتخرج من يستطيع الترجمة ، وكان محمد علي يرى أن هناك كتبا اوربية تنير له سبيل الانشاء والتكوين ، ولا بد من ترجمتها فاستعان بمن يستطيع الترجمة من السوريين المقيمين في مصر (١٠٩) .

وقد كان للترجمة ثلاث اجيال ، فالجيل الأول يتمثل بالسوريين الموجودين في مصر وهم قلبي العدد ومحدودي المعرفة والخبرة ، واما الجيل الثاني فيتمثل بخريجي المدارس واطباء البعثات يقوم بالترجمة كعمل اضافي إلى جانب العمل الاساسي وهو التدريس أو الحكم أو العلاج الطبي ، ولهذا كان لا بد من ايجاد جيل ثالث متخصص في الترجمة ، فانشأت لذلك مدرسة اللسان ، فكان خريجوها الجيل الثالث من المترجمين (١١٠) .

واهم المترجمين السوريين هم: (الأب أنطوان رفايل زاخور) (١١١)، و(يوحنا عنموري) (١١٢)، و (جورج فيدال) (١١٣) ، و (أوغسطين سكاكيني) (١١٤) ، و (يعقوب) (١١٥) ، و (يوسف فرعون) (١١٦) .

وقد شملت حركة الترجمة مختلف المجالات إلا أن مجالي الطب والهندسة اخذا نصيبا كبيرا في حركة الترجمة ، وكانت بجهود عدد من طلاب البعثة العلمية الذين درسوا الطب والهندسة ثم عينوا كمدرسين ومساعدتي مدرستين في مدرستي الطب والهندسة ، ومن أشهر هؤلاء اثنان في مجال الطب هما (علي هيبية ، والشيخ محمد الدشطوطي) اللذين كانا ضمن بعثة سنة ١٨٢٦م إلى فرنسا ، كما أن هناك طائفة أخرى من المترجمين في مجال العلوم الرياضية مثل (محمد بيومي) ، و (إبراهيم رمضان) ، و (احمد دقله) وغيرهم (١١٧) .

وقد نظرت الحكومة المصرية إلى العبء الملقى على عاتق المترجمين المصريين من طلاب البعثات ، فقد قررت انشاء مدرسة للترجمة في سنة ١٨٣٥م سميت (مدرسة اللسان) لتخريج مترجمين كخدمة المصالح والمدارس الحكومية ، كما اوكل محمد علي مهمة الاشراف في هذه المدرسة إلى رفاة رافع الطهطاوي ، فقد زاد عدد الكتب التي ترجمت في هذه المدرسة حتى وصلت إلى ألفي عمل علمي في مجالات مختلفة (١١٨) ، وبلغت الكتب المترجمة في الفنون الحربية والبحرية (١١١) كتابا ، وفي مجال الطب ترجم (٣٤) كتابا ، وفي مجال الطب البيطري ترجم (١٢) كتابا ، وفي العلوم الرياضية بفروعها المختلفة فقد ترجم (٣١) كتابا (١١٩) .

وكان لهذه المدرسة الفضل الكبير في تغذية المثقفين المصريين بمكتبة وافية شملت اهم المراجع الاساسية في التاريخ والأدب والعلوم السياسية ، كما وفرت الحد الأدنى من الثقافة للمثقفين ، ورسخت في نفوسهم اهم المبادئ التقدمية التي بنيت عليها الحضارة الاوربية الحديثة (١٢٠) ، ويعود الفضل الاكبر للترجمة على عهد محمد علي الى رفاة الطهطاوي ، فقد سخر ما تعلمه في باريس وما طالعه من كتب العلوم وكتب الرحلات والعلوم الاخرى ، واتصالاته بكتابار المستشرقين الفرنسيين امثال (سلفستر دي ساسي - (Silvester de Sact) (١٧٥٨ - ١٨٣٨ م) ، إذ سخر ذلك في عمله في مدرسة اللسان (١٢١) ، كما اسهم بترجمة كتب كثيرة ومراجع عدة ، وقام بتصحيح بعض الكتب بعد ترجمتها ، وكان رفاة قبل أن يعود إلى مصر قد قام بنقل ١٢ رسالة في مختلف العلوم والفنون من الفرنسية إلى العربية (١٢٢) .

واهم الكتب المترجمة كتاب (تاريخ كارل الثاني عشر) ، إذ ترجم إلى العربية سنة ١٨٤١ م ، وفي سنة ١٨٤٢ م ظهرت ترجمة عربية لكتاب (روبرتسون - Roberteson) (تاريخ كارل الخامس) ، وفي سنة ١٨٤٩ م ترجم إلى العربية كتاب (تاريخ بطرس الاكبر) لـ (فولتير - Voltaire) (١٢٣) .

ويمكن القول أن الحديث عن الترجمة كأداة من ادوات الاصلاح يقودنا إلى معرفة طريقة رفاة الطهطاوي في الترجمة ، وكيفية تعريب المصطلحات ومن ثم اسلوبه فيها ، فقد امتاز بطريقة جديدة في الترجمة تجاوز بها ما كان سائدا قبله ، إذ كان المترجمون السوريون الذين سبقوه يرافقهم شيوخ الازهر ، لاختيار الالفاظ والمصطلحات العلمية العربية ، وبعد ذلك الاشتاقات وصياغة الجمل ، وكان الاثنان يجلسان معا ، فيأخذ المترجم بترجمة جملة جملة ثم يتبعه المصحح ، ثم يتفقا على الصيغة النهائية للجملة ، لذلك كانت عباراتهم بحاجة إلى الدقة في صحة الموضوع والاسلوب (١٢٤) .

وقد تجاوز رفاة الطهطاوي وتلاميذه في اللسان تلك الطريقة لما كانوا يتمتعون به من معرفة كبيرة بقواعد اللغة العربية ، واهم ما امتازوا به هو عدم اتخاذهم مبدأ التخصص في علم من العلوم في الترجمة وانما ترجموا لكل العلوم والمعارف ، إلا أن قسما من تلاميذه اخذوا بمبدأ التخصص في الاخير ، ولم يكتف رفاة الطهطاوي في بعض الاحيان بالترجمة الكاملة لبعض الكتب بل يضيف اليها فصولا من كتب أخرى وكثيرا ما تكون من مؤلفات عربية ، لكي يتمكن من اخراج مؤلف كامل من ناحية الموضوع والمادة العلمية (١٢٥) .

واستخدم رفاة الطهطاوي طريقة حذف بعض الجمل والعبارات ، وقد تطول إلى المقالات في بعض الكتب التي يجد فيها عدم الدقة العلمية ، والاساءة إلى الاسلام والعرب ، وقد ظهر ذلك في كتاب (قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والواخر) لـ (ديبينج) (١٢٦) ، واستعان رفاة الطهطاوي في ترجماته بتقافته الواسعة بكتابة مقدمة للكتب المترجمة والتعليق على بعض نصوصها ، وظهر له ذلك في ترجمة القوانين والدستور الفرنسي لكي تعطي المعنى الكامل للقارئ ، إذ لم يكتف بترجمة النص الحرفي لها (١٢٧) .